الأمل اليائس

ولدت في أخر القرن السابع عشر سنة ١٦٩٧ وماتت في أخر القرن الثامن عشر سنة ١٧٨٠ وجمعت لنفسها من مزايا هذين العصرين ما جعلها ابرع الناس أدبا وأشد الناس شكا وأوسع الناس أملا وأقم الناس يأسا وأظهر الناس فرحا وأعمق الناس حزنا ولكني أنسيت أن اسميها وقد كان يجب أن أبدا هذا الحديث بتسميتها فهي ماري دي فيشي شمبرند (Madame du vichy champrond) التي يعرفها تاريخ الآداب الفرنسية باسم مدام دي ديفاند (Madame du Deffand).

كان مولدها ونشأتها في هذه السنين القائمة التي ختمت حكم لويس الرابع عشر وأدركها اليتم طفلة فأرسلت إلى دير من هذه الأديرة التي كان يرحل إليها بنات الأغنياء وكانت أسرتها عريقة في الشرف والنبل متقدمة في خدمة الدولة محتفظة بمكانة رفيعة بين أشراف الأقاليم وكانت هذه الأسرة من أشراف بورجوني (Bourgogne) وأهل هذا الإقليم من فرنسا معروفون بالنشاط القوي وحدة الذهن وذلاقة اللسان وحب الحياة وإيثار ما تقدمه إلى الناس من لذات فلم يطل مقام هذه الصبية في ديرها الأرستقراطي حتى ظهر من حديثها وسيرتها ما اقلق الأسرة واقلق رئيسة الدير ويجب أن يكون هذا الذي ظهر من سيرتها وحديثها خطيرا جدا فلم تكن أسر الأشراف لتقلق من شيء يسير ولم يكن أهل الأديرة ليضيقوا غلا بالشيء الذي لا يطاق ذلك بأن حياة الناس في ذلك العصر كان قد أخذها الفساد الخلقي من جميع نواحيها حتى استهانوا بكل شيء وتجافوا عما لم يكن يتجافى الناس عنه إلا في مشقة وعنف وحسبك أن تعلم أن الأديرة كانت قد استحالت في ذلك العصر على قصور فخمة يلهو فيها من أبناء الأشراف وبناتهم من لم تسمح له ظروف الحياة بالعمل في السياسة أو في الجيش ومن لم تتح لهن ظروف الحياة أن يظفرن بالزوج وكان بنات الأشراف خاصة يتخذن من هذه الأديرة دورا للعبث واللهو يسترن ذلك بستار رقيق من اسم الدين ولم يكن لتحرجن من استقبال الزائرين والزائرات ولا من إقامة الحفلات الراقصة بل كان الرقص والموسيقى جزأين أساسيين من برنامج التعليم الذي كان يلقى غليهن

فيها فإذا استطاعت صبيتنا هذه أن تزعج أسرتها ورئيسة الدير بما أظهرت في سيرتها وأحاديثها من خروج على التقليد فيجب أن تكون قد أتت أمرا عظيما وهي قد أتت أمرا عظيما حقا فقد كانت تجادل في الدين ولما تبلغ الثانية عشرة وكان جدالها هذا خطرا مخيفا لأنها كانت تنكر أصول الدين إنكارا وقد استعانت الأسرة ورئيسة الدير على جحود هذه الصبية بعظيم من عظماء الكنيسة وخطيب من ابرع الخطباء في عصره وهو ماسيون (Massillon) فدعى هذا الخير للقاء هذه الطفلة ومحاورتها فلما رآها سمع لها وتحدث إليها وانصرف عنها يائسا وهو يقول إنها لظريفة فلما سألته رئيسة الدير عما تصنع لردها إلى طريق الحق أطال الصمت ثم قال: ضعي في يدها كتابا من أرخص كتب الدين ثم لم يزد على ذلك شيئا وذكرت الصبية حين تقدمت بها السن حوارها مع هذا الحبر العظيم فقالت: أن عقلي قد اضطرب أمام عقله وقالت غني لم أذعن لحجته وإنما أذعنت لجلاله ومعنى ذلك أن الخصمين التقيا فلم يقنع أحد منهما صاحبه ولكن أكبر كل منهما صاحبه فلما بلغت هذه الفتاة العشرين أو جاوزتها قليلا زوجت من رجل شريف عظيم الخطر من حكام الإقليم ولكنها لم تكد تقضي معه أشهرا حتى أنكرته وضاقت به وكرهت عشرته كرها شديدا وكانت تقول عنه إنه يبذل أقصى ما يستطيع ليسوءك ويصرفك عنه على أنها قد أقنعته بالرحلة إلى باريس ولم تكد تصل إلى هذه المدينة وتستقر فيها حتى اندفعت في حياة اللهو والعبث اندفاعا لفت غليها الناس وجعلها موضوع الأحاديث في هذه المدينة الباسمة اللاهية وكان لويس الرابع عشر قد مات وكان اغمر الدولة إلى الوصي الذي أقيم على الملك الصبي لويس الخامس عشر وكان هذا الوصي صاحب لهو لأحد له وصاحب مجون وعبث لأحد لهما أيضا وكان الناس قد ساروا سيرته كأنما أرادوا أن يعرضوا ما فاتهم في تلك الأيام الحزينة التي ختمت حكم الملك الشيخ وما أسرع ما اتصلت صاحبتنا بقصر الوصي واشتركت فيما أقام فيه من حفلات ثم اتصلت بالوصي نفسه وأصبحت له خليلة ولكن حبه لها لم يتجاوز خمسة عشر يوما على أنها قد ربحت من هذا الحب القصير ستة ألاف من الجنيهات الفرنسية تصرف لها في كل عام ما امتدت لها الحياة وأسرفت صاحباتنا في اللهو حتى أنكرها أصحاب اللهو من أهل باريس وحتى ساءت الصلة بينها وبين زوجها فافترقا دهرا ثم كان بينهما صلح لم يطل وعادا إلى الفرقة ثم كان بينهما صلح أخر قوامه أن يلتقيا على الغذاء والعشاء وألا يعيشا معا ولكن هذا الصلح نفسه لم يتصل أيضا ففرق بينهما وعاد الرجل إلى قصره في الأقاليم وأقبلت هي على لهوها في باريس لا تدع غنا من فنون العبث إلا أخذت منه بحظ عظيم: على أنها لم تكد تجاوز الثلاثين حتى تبينت أن ما هي فيه من الأمر باطل كله وحتى سئمت اللهو وعافته وأخذت تحس انصراف عنه إلى أخ أخر لها في الأقاليم ثم عادت مرة أخرى إلى باريس واتصلت بقصر من قصور الأشراف كان يؤوي اكبر من تعرفهم فرنسا وأوربا من الأدباء والفلاسفة وأصحاب الفن وفي هذا القصر ظهرت قيمتها الأدبية واستكشفت براعتها في الحديث وتبين الذين عاشروها إنها

امرأة ليست مغيرها من النساء بل ليست ككثير من الرجال وإنما تمتاز بقلب ذكي وعقل قوي ولسان فصيح عذب ومهارة في تصريف الحديث لا تبلغ الإعجاب وحده ولكنها تبلغ إعجاز المحدثين مهما تكن منزلتهم ومن ذلك الوقت أخذ أمر هذه المرأة يعظم وشأنها يرتفع لا من حيث إنها امرأة جميلة خلابة تحب اللهو وتسرف فيه فقد كانت في ذلك الوقت قد بدأت تقصر عن اللهو وتعري أفراس الصبي ورواحله كما يقول زهير بل من حيث غنها امرأة أدبية أريبة يستطيع أن يستمع بحديثها وعشرتها وبراعتها ذوو العقول وقد أثرتها صاحبة القصر إيثارا عظيما حتى لم تكن تصبر على فراقها وأحبها فولتير وكلف بها منتسكيو وأطاف بها أعلام الأدب والفلسفة من الفرنسيين يستبقون إلى مودتها وما هي إلا أن تتخذ لنفسها دارا في باريس وتدعو إليها أصدقاءها هؤلاء من الأدباء والعلماء والفلاسفة يسمرون عندها يوم الأربعاء من كل أسبوع ثم تضيق هذه الدار بمن يقصد إليها من رجال فرنسا وأوربا على اختلافهم فتتحول عنها إلى دار أخرى رحبة تستأجرها في دير من هذه الأديرة الأرستقراطية في باريس وفي هذه الدار التي استأجرتها كانت تقيم قبلها مدام دي منتسبان خليلة لويس الرابع عشر تلك التي ملأت حياة الملك العظيم لذة وغنما وكلفت رجال الدين من حوله مشقة وجهدا والتي كانت تأوي إلى هذا الدير من حين على حين تستغفر الله من خطاياها وتضرع إليه في الوقت نفسه أن يحفظ عليها هذه الخطايا أقامت صاحبتنا في هذه الدار ونظمت استقبالها لأعلام فرنسا مرتين في الأسبوع يتناولون عندها الشاي ويسمرون إلى قريب من أخر الليل ويتحدثون فيما شئت من أدب وعلم ومن فلسفة وفن ومن سياسة وحرب ولكنها لم تكن تحب أن تشارك الأدباء والعلماء والفلاسفة فيما كان يجري بينهم من حوار لأنها كانت تكره الأدب والعلم وكانت تكره الفلسفة خاصة وتضيق بها ضيقا شديدا وكانت تعني بأشخاص زائر بها أكثر مما تعني بما كان عندهم من علم أو أدب أو فلسفة كانت مسرفة في الشك وكان إسرافها في الشك يصرفها عما كان يكلف به الناس في عصرها من هذه الفلسفة الحرة الغالية التي كانت تعمل في الهدم أكثر مما كانت تعمل في البناء وتتقدم السن بصاحبتنا وقد مات زوجها وأصبحت حرة حتى أمام القانون وقد جدت في تنظيم حياتها وانصرفت عن اللهو والمجون إلى حياة الجد ولذة الحديث والسمر ولكنها على ذلك اتخذت لها خليلا عاشت معه عيشة الأزواج لم تكن تحبه ولكنها لم تكن تكرهه إنما كانت تستعين به على احتمال الحياة كما كانت تستعين بكل شيء على احتمال الحياة فقلما عرف تاريخ الآداب امرأة ضاقت بالحياة كما ضاقت بها هذه المرأة كانت متشائمة كأشد ما يكون التشاؤم وكانت تردد هذه الكلمة التي تقر بها من أبي العلاء وهي: أن شر ما ابتلينا به من الشقاء إنما هو الحياة وكانت تستعين بإسرافها في المجون والعبث ثم في الجد والإنتاج الأدبي على احتمال الحياة ولعلها لم تله ولم تعبث ولم تجد إلا لتنسى الحياة وتنصرف عن نفسها فقد كانت تكره العزلة وتخافها خوفا شديدا فكانت تسهر الليل ولا تنام إلا قليلا من النهار وتنفق وقتها قارئة أو لاهية أو مستقبلة ولا تكاد تبلغ

الخمسين من عمرها حتى يتم الله محنته لها وحتى يأخذها الشقاء من كل وجه فهذا حجاب رقيق يلقى شيئا فشيئا بينها وبين النور ثم يتكاثف هذا الحجاب قليلا قليلا وهي تحس ذلك وتجزع له وتلجأ إلى الأطباء والسحرة والمشعوذين فلا تجد عند أحد منهم شيئا والحجاب يتكاثف ويتكاثف حتى يستحيل إلى سور صفيق يقطع كل سبب بينها وبين الضوء وإذا هي عمياء.

أفتظن ذلك قد غير من سيرتها أو اضطرها إلى شيء من القصد والاعتدال؟ ليس من شك في أنها قد حزنت لذلك حزنا عميقا ولكنه حزن أضيف إلى حزن حفظته في أعماق نفسها ولم تظهر منه للناس شيئا إنما كتبت إلى بعض أصدقائها من أعلام الأدب والسياسة تنبئهم بهذه الكارثة فمنهم من رق لها كفولتير ومنهم من عبث بها كمنتسكيو وكلهم قد مضى في إكبارها والاختلاف إليها لم يغير من سيرته شيئا كما لم تغير هي من سيرتها شيئا فظلت مائدتها تقام يوم الاثنين والأربعاء من كل أسبوع وظلت تختلف على الأوبرا والملاعب وتشترك في الحفلات كما كانت تفعل من قبل واتخذت لها رقيقة فتاة من أهل الأقاليم ولدت في أسرة شريفة ولكن مولدها لم يكن شرعيا وكانت هذه الفتاة مدموازيل لسبيناس ذكية بارعة الذكاء حساسة قوية الحس مثقفة واسعة الثقافة وكانت المودة بينها وبين سيدتها قوية متينة دامت عشر سنين لم يكدر صفوها مكدر ثم لاحظت صاحبة الدار أن زوارها أو فريقا منهم إذا انصرفوا عنها لم يخرجوا وإنما أتموا سمرهم عند الفتاة فغاظها ذلك وكانت القطيعة بين الصديقتين ولكنها لم تكن قطيعة مألوفة إنما كانت حدثا من أحداث العصر في باريس انقسم له الأدباء والفلاسفة انقساما عظيما تعصب بعضهم للشيخة وتعصب بعضهم للفتاة وكانت كثرة الفلاسفة وعلى رأسهم دالمبير (d,Alembert) من أنصار الفتاة وكانت الأرستقراطية المعتدلة والمحافظة من أنصار الشيخة.

ثم استأنفت الحياة المنظمة طريقها عند صاحبتنا واتخذت الفتاة لها ناديا أو صالونا أدبيا واشتدت المنافسة بين هاتين المرأتين وصاحبتنا الآن في الثامنة والستين من عمرها قد فقدت البصر منذ ثمانية عشر عاما وعظمت مكانها في أوربا حتى لم يكن عظيم من الأوروبيين يزور باريس غلا رأى حقا عليه لنفسه ولمكانته أن يلقاها ويتحدث غليها وفي أكتوبر من هذه السنة ١٧٦٥ زار باريس رجل من عظماء الإنجليز هو رأس ولبول (Horace Walpold) كان أبوه روبير ولبول (Rabert Walpole) وزيرا وكان هو عذوا في البرلمان فلما مات أبوه ترك السياسة وانصرف إلى الأدب والفن وكان في الخمسين من عمره ولم ير هذا الرجل بدا من أن يزور صاحبتنا هذه ويغشى ناديها كما كان يغشي أندية الأدب والسياسة كلها في باريس فلما رأى هذه الشيخة أنكرها وكتب إلى صديق له يصفها بأنها عجوز عمياء فاجرة العقل على أن وقتا قصيرا لم يمض على هذه الزيارة حتى تغير الأمر بين هذا الإنجليزي وهذه الفرنسية وتكررت الزيارة فوقع الإنجليزي من نفس هذه المرأة موقعا غريبا رد إليها الشباب بل رد إليها الصبا فأحبته

وأنا أعني بهذه الكلمة معناها أحبته وقد أشرفت على السبعين ولم يرفض هو هذا الحب ومن المحقق انه لم يلق هذا الحب بمثله ولكنه أضمر لهذه المرأة مودة قوية صادقة لم تغيرها الأيام وأظهر بها إعجابا لا حد له واتصلت أسباب المودة والحب بينهما ما أقام في باريس فلما رجع على لندرة اتصلت بينهما الكتابة وكان يأتي إلى باريس من حين إلى حين ليرى حبيبته أو ليرى عاشقته أو ليرى يتيمته كما كانت تسمى نفسها فقد كانت تسمى نفسها يتيمة وتسميه هو وصيا وكان هو يسميها ابنته الصغيرة وكان الحنان بينهما كأقوى ما عرف الناس من الحنان بين المحبين وكانت نتيجة هذا الحب أربعة مجلدات نشرت بعد موتهما وفيها ثمانمائة من الرسائل التي اتصلت بينهما وهي آيات من آيات الأدب الفرنسي لا أكثر ولا أقل فيها تصوير لهذه العواطف النادرة الشاذة التي لم يألفها الناس والتي تملأ قلوبهم مع ذلك رحمة وبرا وإشفاقا وعطفا وما رأيك في هذه الضريرة التي نيفت على السبعين والتي تكتب لصاحبها رسائل حب وغرام كرسائل الفتيات اللاتي لم يتجاوزن العشرين على أن صاحبها كان إنجليزيا ومعنى ذلك أنه كان يخاف السخرية والمزاج وكانت الرقابة مضروبة على الرسائل في إنجلترا ذلك الوقت فكان صاحبنا مروعا دائما يخشى أن تفض رسائل صاحبته وأن يعرف ما فيها من هذا الحب الغريب فيتندر الناس به في القصر وفي الأندية فكان يرد صاحبته إلى القصد في تصوير عواطفها الحارة وكانت هي تخاصمه في ذلك وكان الأمر يفسد بينهما أحيانا ولكنه لا يلبث أن يعود إلى خير ما كان وانقطعت رسائله عنها مرة فكتبت إليه يظهر أنك لا تريد أن تظهرني من أمرك على شيء فاحذر أيها الوصي أن تصبر على ذلك فإني حليفة أن فعلت أن أرسل إليك سكرتيري وأن أكفله الإسراع إلى لندرة وأمره أن يلزمك وأن يرسل إلي بأنبائك وأن يعلن إلى الناس جميعا وفي كل مكان إني يتيمتك وأنك وصي وأني أحبك وأن يهيئ لي عندك مكانا فألحق به وأعلن إلى الناس جميعا ما بيننا لا أخاف فضيحة مهما تكن فاختر لنفسك بين الفضيحة والكتابة إلي.

ولعلها كانت في بعض الوقت تذعن وتطيع وترد نفسها إلى القصد ثم تثور فترسل نفسها على سجيتها وتطلق حبها صريخا حرا وكذلك عاشت هذه المرأة خمسة عشر عاما استرد قلبها فيها شبابه كله وتبينت هي وتبين هو وتبين الناس في عصرهما ومن بعدهما أن ما اندفعت فيه هذه المرأة من العبث واللهو ومن المجون والفساد ثم من الجد الخصب والنشاط المنتج كل ذلك لم يكن إلا ضيقا بالحياة وافتقادا لهذا النور الذي يحببها إلى المنتج كل ذلك لم يكن إلا ضيقا بالحياة وافتقادا لهذا النور الذي يجيبها إلى النفس وهو الحب ومصارعة لهذا العدو الفاتك وهو اليأس فلما بلغت السبعين أو كادت تبلغها ظفرت بالحب عند هذا الإنجليزي وظفرت به من غير طريقه كما كان يقول المعاصرون فإن العيون هي أوضح طرق الحب إلى النفوس ولكن الحب قد

يسلك إلى النفوس طريق الآذان كما قال شاعرنا القديم وأكبر الظن أن صوت هذا الإنجليزي هو الذي حمل الحب إلى نفس هذه الفرنسية فثبته فيها تثبيتا.

وفي سنة ١٧٨٠ ماتت هذه المرأة وكتبت قبل موتها بقليل جدا إلى صاحبها كتابا تنبه فيه بقرب أخرتها وتبثه بأنها لا تأسف لفراق الحياة لأنها لا ترى في الحياة خيرا بعد أن كتب غليها ألا تلقاه وتنصح له بأن يستمتع بالحياة ما استطاع وتبثه بأنه سيحزن عليها فليس من اليسير أن يتعزى الناس عمن كان يؤثرهم بالحب فلما أتمت إملاء كتابتها هم سكرتيرتها الشيخ أن يقرأه عليها كعادته فلم يستطع لأنه كان يقطع قراءته بالبكاء هنالك أحست هذه المرأة المتشائمة البائسة التي أسرفت في سوء الظن بالناس أحست أن هذا السكرتير لم يكن يعمل عندها ليعيش فقالت له بصوت خافت فيه نغمة الموت وفيه مع ذلك نغمة الرضى والغبطة: أكنت تحبني إذا؟

هذه صورة من صور هذه المرأة وهي من غير شك اشد هذه الصور اتصالا بالنفوس وتأثيرا في القلوب ولكن لهذه المرأة صورا أخرى عظيمة الخطر جدا في حياة الأدب الفرنسي فقد كانت ناقدة ولها في أدباء فرنسا وفي كبار أدبائها خاصة أراء قيمة تثير الإعجاب لرقتها ولبراعة الصيغ التي كانت تعلن فيها كانت تؤثر فولتير وكانت تضيق بروسوف انظر إلى هذه الجملة البديعة التي تنقد فيها أسلوب جان جاك: أن لروسو حظا من الوضوح ولكنه وضوح البرق وله حظ من الحرارة ولكنها حرارة الحمى.

واتصلت هذه المرأة بأصحاب السياسة واتصلت بالعظماء والأشراف وكانت منهم قد كتبت إليهم وتلقت منهم الكتب وقد صورتهم وصورها فهذه ناحية أخرى من حياتها لها أثر في توضيح التاريخ السياسي والاجتماعي لفرنسا في القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية الكبرى.

وبعد فلعل أحسن ما كتب عن هذه المرأة على إلى الآن فصلان كتبهما سانت بوف في أحاديث الاثنين تستطيع أن تقرأ أحدهما في الجزء الأول وثانيهما في الجزء الرابع عشر فإن أردت الإيجاز المقنع فاقرأ الفصل الذي نشر عنها في مجلة العالمين أول أغسطس فغن أبيت أن تتكلف القراءة أو تشق على نفسك بالبحث فقدر هذا الوصف الذي كان يصفها به فولتير وفكر فيه فإنه يعطيك منها صورة قوية تملأ نفسك رحمة وإعجابا فقد كان يسميها: الضريرة المبصرة.